مرج الزهور: من.. إلى..

إلياس خوري

- ١ -

من مرج الزهور إلى مرج الزهور. تظهر الصّورة في المرآة، وتتّخذ المرآة شكل الشظايا. لماذا وكيف؟ لماذا نجد أنفسنا محاصرين بالثّلج والجوع، وعلى مرمى حجر من بلادنا، ولماذا لا نجد بلادنا؟

ومرج الزهور أيُّها السّادة، ليس وطناً رمزيّاً. لسنا في صهريج الماء الذي يحترق الفلسطينيُّون في داخله في رحلتهم الرّمزيّة إلى الكويت، كما كتبت «رجال في الشّمس»، ولسنا في رحلة سعيد المتشائل إلى كهف ابنه وزوجته، كما كتبت «المتشائل»، ولسنا في فصل جديد من «المشهد الأندلسي وكواكبه»، نحن في الحقيقة التي صارت رمزاً للحقيقة. والحكاية تأخذنا إلى المأساة، وتقودنا من زمن الرّمز إلى زمن العري الكامل.

من مرج الزهور إلى مرج الزهور.

من أسيوط إلى الجزائر، ومن الصّومال إلى العراق، من نحن في هذا العصر الأميركي الذي يجتاح العالم؟

هل انطوى الحلم العربيّ، ولم يبقَ سوى الكابوس؟

هل كتب علينا أن نشهد بداية القرن الجديد، من داخل آبار النّفط التي يحكمها أسياد السّاعة المنقلبة؟

هل انقلب الزّمن، وصرنا عراة في ذلك المشهد اللبناني المسمّى «مرج الزهور». هل جاء مرج الزهور ليمحو صورة بيروت وهي تقاوم أشهر الحصار الطويلة كما لم تقاوم مدينة؟

أسئلة، وأسئلة.

السُّؤال يفتح على سؤال جديد، ونحن في اللّحظة الأخيرة أمام الهاوية الأخيرة. هل نحن نحن، أم أنّ الحكاية تبدأ حين توحي بأنّها تنتهي؟

- ٢ -

جاءنا الوحش في تلك العاصفة التي اجتاحت الصحراء.

والوحش لم يأتِ من الخارج. الآلة العسكريّة الأميركيّة الأطلسيّة التي احتشدت كي تسحق العراق، وتخرج العرب من اللّحظة التّاريخيّة، لم تأتِ من الخارج. فالخارج لا يستطيع أن يفعل ما فعلوه بنا.

لكنّهم احتشدوا.

حوّلونا في وسائل الإعلام إلى وحوش نهاية القرن. صنعوا من صورتنا مزقاً من الكلمات التي اعتقدنا أنّها ذهبت مع آخر المستشرقين وحكّام المستعمرات. لكن فجأة، وأمام تخوم النّفط، عادت اللّغة القديمة، وعدنا إلى لغة الوحشيّة المطلقة. فعندما تصف عدوّك بأنّه وحش، فهذا يعني أنّك ستسحقه بوحشيّة. وهذا ما فعلوه، حوّلوا بلداً عربيّاً إلى ركام. ورقصوا فوق الجثث، واحتفلوا بالموت.

كانت الأمبراطوريّة الأميركيّة تؤسّس لسيطرتها على العالم انطلاقاً من سيطرتها على النّفط العربي.

وفي تلك الحرب الطيفيّة التلفزيونيّة، لم نرَ سوى المفرقعات التي تملأ فضاءات التلفزيون، وكان أبطال حروب النجوم يقصفون من علوّ شاهق، يمزّقون الأرض ومن عليها، ثمّ حين اجتاحوا الأرض بعد تمزيقها، جاءت الجرّافات ودفنت ستّين ألف جندي أحياء في خنادقهم.

ومع ذلك نقول إنّهم لم يأتوا من الخارج.

جاءوا من أقاصي الأرض، ملأوا البحر بالسّفن، وحملوا معهم طعامهم من بلادهم، وكان قائدهم شوارزكوف يحلم بأن يتحوّل إلى لورنس عربي جديد.

ومع ذلك لم يأتوا من الخارج.

جاءوا من النّقطة التي تفصل الدّاخل عن الدّاخل.

نحن عرب، هذا صحيح، لكنّنا لسنا عرباً!

العروبة ليست ما يوحّدنا، لأنّها حين توحّدنا تقتلنا.

العروبة، أو الفكرة العربيّة، كانت منذ البداية، أي منذ إعادة تأسيسها في المرحلة النّاصريّة، دعوة إلى الانقسام، وليست دعوة إلى التوحّد..

الفكرة العربيّة كانت دعوة إلى تجديد المجتمع، رفض القديم البالي، والانطلاق نحو الجديد والحديث.

وعندما ضُربت الفكرة العربيّة في هزيمة ١٩٦٧، جاءت فكرة أخرى اسمها «التّضامن العربي»، وأسّست لسيادة عضر التخلّف والنّفط والقمع والتوحّش.

نعود إلى المسألة.

لم يأتوا من الخارج، بل جاءوا من داخلنا.

وهنا نسأل، عن أيّ داخل نتكلّم؟

الصّورة البسيطة والتبسيطيّة تقول إنّهم جاؤوا من النقطة الخلافيّة التي أثارها اجتياح الجيوش العراقيّة للكويت. وهذا صحيح، لكنّه ليس كلّ الصّورة. إنّه نصفها المليء بالظلال والالتباس.

أمّا نصفها الآخر فيقول إنّهم جاءوا من داخل آخر.

جاءوا من الأزمة الكامنة التي حوّلت البلاد العربيّة إلى ما يشبه السّجون المغلقة، وأقامت السُّلطة على أنقاض النّاس.

هذا هو النّصف الآخر من الصُّورة الذي يحجبه اليوم دخان

القنابل التي ترمى، وصورة المبعدين في الوحل والشّتاء، وصراخ الجائعين في الصومال يحوّله الوحش إلى نقطة التفاف وتطويق للمنطقة العربيّة.

- ٣ -

نعود إلى مرج الزهور.

في مرج الزهور أعلنت نتائج حرب الخليج، ورسمت مسارات مشروع السّلام الذي تحاول الولايات المتّحدة فرضه على المنطقة.

ولكن مرج الزهور، ليس مرجاً واحداً.

إنّه يعكس من جهة، الوقاحة والغرور والصّلف والوحشيّة التي يتعامل بها الاسرائيليّون مع الحقّ الفلسطيني.

لكن يعكس أيضاً، العجز الإسرائيلي أمام الانتفاضة.

في مرج الزهور حاولوا أن يعيدونا إلى الصّفر، وأن يجعلوا من الفلسطينيين شعباً أعزل، مرميّاً وسط القفار، يبحث عن خيمة.

عودة إلى ١٩٤٨.

هذا ما تقوله مرج الزهور.

لكن ١٩٤٨ لم تعد ممكنة. حتّى بعد هزيمة حرب الخليج، وحتّى بعد سقوط التوازن الدّولي، وحتّى بعد التفكّك الذي يضرب المجتمع العربي.

في مرج الزهور أعلنّا المأزق العام.

نحن في مأزق، وعدوّنا في مأزق.

والحلّ لا يكون بأن تُفرض علينا الحلول. الحلّ يكون حين يقرّر الشّعب الحلّ، عندها تكون المفاوضات احتمالاً، ولا تكون كما كانت حتّى الآن: محاولة لفرض الاستسلام الكامل على العرب.

في مرج الزهور اكتشفنا أنّ المأزق الذي وضعت فيه المنطقة العربيّة ليس مغلقاً إلاّ لأنّ الأنظمة الدكتاتوريّة تغلقه. أمّا حين يكون النّاس طرفاً في المأزق فإنّهم يستطيعون تحويله إلى مأزق لعدوّهم.

- ٤ -

نعود إلى السّؤال.

من أيّ داخل استطاع ذلك الحشد العسكري الغربي الهائل أن يأتي؟

لم يأتوا من الانقسام العربي، بل جاؤوا من وهم التوحّد في زمن انهيار الفكرة العربيّة وتخلّيها عن مشروعها التّاريخي!

أي جاؤوا من الدكتاتوريّة.

هذه هي المسألة الجوهريّة التي علينا أن نواجهها، كي لا يبدأ القرن الجديد كسابقه على حطام عالمنا العربي.

بعد الحرب العالميّة الأولى، اكتشف العرب أنّهم خدعوا، ليس من بريطانيا العظمى، بل من قادتهم الذين قادوهم إلى الخديعة. وبدأ القرن بالخيبة والتّقسيم ووعد بلفور.

واليوم، بعد انهيار الأمبراطوريّة السوفياتيّة، يكتشف العرب مرّة جديدة أنّهم خارج المعادلة في عالم اليوم. والذي يقودهم إلى هذا الخارج ليس الولايات المتحدة بل قادتهم الذين يتمسّحون على أقدام الحماية الأميركيّة.

لكنّ الخديعة الجديدة لم تبدأ إلاّ حين أُخرج الشّعب من القرار وتحوّل المجتمع الأهلي إلى ركام، ولم يعد أمام النّاس سوى أصوات الماضي البعيد وأصوله يتمسّكون بها، خوفاً من الاجتياح المغولي الذي يقوده هولاكو جديد يمتلك التكنولوجيا والقوّة.

السّؤال يبدأ، حين نؤسّس لرؤية ديمقراطيّة جديدة، تستعيد الفكرة العربيّة، وتضعها في سياقها، بوصفها صراعاً بين الجديد والقديم، وحرباً بين الديمقراطيّة والدكتاتوريّة.

وحين يبدأ السّؤال، نكتشف أنّه رغم الهزائم، فإنّ الوحش التكنولوجي لا يستطيع أن يغلق الأفق، لأنّنا نمتلك الأفق، ونستطيع أن نقاوم إلى ما لانهاية.

- ٥ -

في مرج الزهور عاد الموضوع إلى مرجعه.

حفنة من الرّجال قرّروا أن يقولوا لا.

وخلفهم مئات الآلاف في الشّوارع تقول لا.

وفي داخلهم يعيش وطن اسمه فلسطين، يرفض أن يموت. وحولهم ملايين العرب الذي منعهم القهر والقمع والسّجن من أن يقولوا لا.

حين نتعلّم كيف نقهر السّجن، وحين توحّدنا فكرة جديدة عن معنى العروبة، وعندما نستعيد حقّ المجتمع في الوجود الحر والتّعبير الحرّ، عندها يتحوّل ملوك النّفط إلى مجرّد لحظة عابرة في كلمات عابرة في زمن عابر، ويمرّون في «الكلمات العابرة» هم والجبروت العسكري الاسرائيلي المحمي بحاملات الطّائرات الأميركيّة.

- ٦ -

السّؤال عن الهزيمة هو سؤال عن المجتمع.

وهذه المرّة لا يحق لنا أن نسكت أو ننحني باسم حماية ما تبقّى.

لم يبقَ شيء لم يدمّر.

لم تبقَ حقيقة لم يبقّعها التزوير.

لم يبقَ سوى نحن، هذا الشّعب الذي يصبر على الذلّ والمهانة والقمع وأمامنا السّجن الذي يجب أن يتحطّم.

تبدأ الأشياء رغم أنّها توحي بالنّهاية.

والبداية هي أنّ نرى الحرّيّة ونذهب إليها.